من آثارنا في بيت المقدس

سبيل قايتباى

على السيد على محمود(*)

لا يمكن أن تكون محبة القدس كاملة إلا إذا عرفناها ودرسناها من مختلف النواحى . فالقدس، ليست مجرد مدينة من عشرات الألوف من مدن الأرض، ولكنها رمز دار حوله الصراع على مدى أجيال عدة في تاريخ المنطقة العربية .

والقدس اليوم رمز في صراع جديد قديم بين القوى العربية في المنطقة وقوى البغى والعدوان الآتية من خارج المنطقة تفرض منطق الاستيطان العنصرى المتسربل برداء الدين . والقدس في ماضينا القريب كانت رمزاً لصراع بين العرب والقوى الصليبية التي وفدت إلى المنطقة تزرع فيها كياناً دخيلاً، فما أشبه اليوم بالبارحة، والمثير للانتباه أن القدس كانت محور الدعاية الصليبية بالأمس، كما هي محور الدعاوى الصهيونية اليوم . فقد جاء الصليبيون في أخريات القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر للميلاد تحت دعاوى تحرير القدس من العرب المسلمين، وادعوا أن فلسطين أرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار الذي اصطفاه للمهمة المقدسة لتحرير ضريح المسيح من المسلمين . ولا غرو فقد ورث المسيحيون العهد القديم (التوراة) بكل ما فيها . وها نحن اليوم نواجه العدوان الصهيونى /الأمريكى تحت الراية نفسها، وفي ظل المزاعم ذاتها، فالصهاينة يزعمون أنهم شعب الله المختار وأن القدس وفلسطين هي الأرض التى وعدهم الرب بها .

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى . كلية الآداب – جامعة الفيوم.

ولم تكن القدس بالنسبة للعرب مجرد مدينة على الخريطة، وإنما كانت بالنسبة لهم أولى القبلتين وثالث الحرمين . ولم تكن في الحضارة العربية الإسلامية واجهة تخفى النيات العدوانية، والمقاصد الهمجية، والأغراض الاستيطانية، ولكنها كانت قبلة للعلماء، ومقصدا للدارسين، ومناراً مرشداً لصناع الحضارة في كل مكان . وأثبتت على مدى التاريخ العربى أنها مدينة السلام .

والقدس إذن الآن مركز تحد حضارى حيث يدور حولها صراع سياسى كبير . كما أن الخصوم يجهدون أنفسهم في إبراز تخلف العرب الحضارى، متمثلاً ضمن ما يتمثل في إهمالهم لتراثهم في القدس، التي حولها الخصوم بالقوة إلى عاصمة لهم، ويهللون لقطعة حجر وجدوا عليها نقشا عبريا، في الوقت الذي مازالت فيه آثارنا العربية الإسلامية في وضع سيء للغاية، تتآكل كل يوم، وتتساقط مع كل صيف وشتاء لعوامل كثيرة أهمها انعدام الصيانة وقلة العناية .

ومن أكبر الأخطاء القول بأن إنقاذ التراث لا يمكن أن يتم إلا بعد الانقاذ السياسى وبعد الحل . لأن معنى هذا زوال المعالم الحضارية العربية الإسلامية من المدينة، وهذه كارثة بكل معنى الكلمة، ولابد أن تتضافر الجهود لعمل شيء، ولإن نضئ شمعة واحدة خير من أن نلعن الظلام، في وقت لن تنفع فيه اللعنات.

ففي المنطقة ما بين باب السلسلة وباب القطانين من أبواب المسجد الأقصى بالقدس الشريف، يقع سبيل قايتباى أشهر سبيل في القدس وأجملها وعلى بعد خمسين مترا من جدار الحرم الغربى بين درج صحن الصخرة الغربى الأوسط والمدرسة العثمانية (دار الفتيانى)، عند مدخل المكتبة الخالدية، على يمين الداخل من بابها المطل على الجانب الجنوبى من طريق باب السلسلة[1] .

هذا السبيل أول من شيده هو السلطان المملوكى الملك الأشرف أبو النصر العلائى اينال الأجرودى الناصرى الذي حكم في الفترة من ٨٥٧-

٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م [٢] وعندما قام السلطان الأشرف قايتباى في الحكم عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م، وزار القدس عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، وأنشأ مدرسته الأشرفية القايتبائية، وأعاد بناء هذا السبيل وجامعه بغزة، على أيدي جماعة من المعمارية والمهندسين والحجارين، ولذلك نسب إليه هذا السبيل وعرف باسم سبيل قايتباى، عند باب المتوضأ، وعلى بعد بضعة أمتار منه إلى الشرق . وهو من أشهر السبل القائمة في الحرم وأكبرها . ومن أعظم محاسن هذا السبيل كونه في هذه البقعة الشريفة، ولو كان في غير هذا الموضع لم يكن عليه الرونق الموجود عليه ببنائه، حيث يطل على الحرم القدسى الشريف وصحن الصخرة العالى، ثم جدده السلطان العثمانى عبد الحميد عام ١٨٨٢م [٣] .

ولقد امتازت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) وكما امتازت غيرها من المدن التي خضعت لحكم دولتهم بكثرة المنشآت الاجتماعية ومنها الأسبلة، التى كان الغرض منها هو تيسير الحصول على الماء العذب لشرب الإنسان والحيوان . ولذلك اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم طوال فترة حكمهم بإنشاء العديد من الأسبلة في القدس في كثير من المواضع المختلفة بها، وفي ساحة الحرم القدسى الشريف خاصة، ليتوافر للمصلين والزوار الحصول على ماء الشرب قبل دخولهم المسجد لأداء فريضة الصلاة . ولما عرف عن مدينة بيت المقدس من قلة المياه وعدم وجود أنهار بها، فضلا عما كان يعانيه الناس فيها بسبب قلة الأمطار بها [٤] .

وتجدر الإشارة إلى أن اهتمام سلاطين المماليك وأمرائهم ببناء تلك الأسبلة وغيرها من المنشآت الاجتماعية والثقافية والدينية كان نابعا بالدرجة الأولى من سياستهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن قيام دولتهم على مسرح الأحداث السياسية، وما ترتب عليه من قيام دولة سلاطين المماليك بقسميها، دولة

المماليك البحرية أو الأولى، ودولة المماليك الجراكسة أو الثانية بالدفاع عن الكيان الإسلامى ضد الخطر المغولى والخطر الصليبى، فضلا عما أحاط بظروف نشأة هؤلاء المماليك وما لمسوه من نظرة المعاصرين لهم بسبب أصلهم غير الحر،إلى جانب أنهم اغتصبوا الحكم من سادتهم بنى أيوب، مما كان له أكبر الأثر في رسم سياسة المماليك، تلك السياسة التي انعكست آثارها على أوضاع الأماكن المقدسة الإسلامية ممثلةً في شقيها الحربى والدينى، وهى ظهور المماليك كقوة تدافع عن الإسلام ورسوخ قيمة سلطنة المماليك كقوة ضاربة تدافع عن الإسلام والمسلمين وترعى مقدساتهم . وباعتبار أن القدس بما لها من مكانة مقدسةٍ لدى المسلمين جميعا تمثل ركيزةً هامةً كان عليهم أن يولوها من الرعاية والعناية ما يبرزون به الجانب الدينى من سياستهم، وبما يعطى انطباعاً بأن قيام دولتهم في الحكم ليس ضرورةً لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية فحسب، بل أيضًا لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته، ورصد جزء كبير من ثروات دولتهم في رعاية تلك المقدسات، ليظهروا دائما في صورة رعاة الدين الساهرين على علومه وأركانه، المنفذين لأحكامه وشريعته(٥) .

ولم تكن تلك الرعاية قصراً على المؤسسات الدينية، بل كانت عنايتهم بالمؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة في المدن المقدسة الإسلامية ومنها بيت المقدس، بعد أن تحررت من الخوف الذي خيم عليها نحواً من قرنين من الزمان زمن الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م).

أما عن عناية سلاطين وأمراء المماليك بالأسبلة في بيت المقدس فقد انصبت تلك العناية على تجديد بعض الأسبلة التي كانت موجودة فعلاً قبل قيام دولتهم، أو إقامة بعض الأسبلة الجديدة، من ذلك أن السلطان برسباى قد تم في

عهده تجديد سبيل شعلان وهو السبيل الذي بناه الملك المعظم عيسى الأيوبى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م [٦] . فقد جاء في اللوحة اليمنى بتجديد السبيل زمن الأشرف برسباى سنة ٨٣٢هـ بخط النسخ المملوكى على واجهة السبيل وفيها :

١-جدد هاذ (كذا) السبيل والمصلا والمحراب العبد .

٢-الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين .

٣-الشريفين في أيام مولانا السلطان الملك .

٤-الأشرف برسباى خلد الله ملكه بتاريخ .

٥-شهر رمضان المعظم سنة اثنين وثمان مائة[٧] .

وفي القدس ثمانية وعشرين سبيلاً آثارها جميعا موجودة حتى اليوم، منها أحد عشر سبيلاً في ساحة الحرم القدسى الشريف، وخمسة عشر سبيلاً داخل القدس الشرقية، وسبيلان خارجها[٨] .

والسبيل يعنى المكان الموقوف والمجعول لتيسير الماء العذب لمن أراد الحصول عليه وتارةً يكون لشرب الناس من أبناء مدينة بيت المقدس والقادمين إليها وتارةً للنفع العام . وكلمة السبيل تعبير استعمل أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى، الثالث عشر والرابع عشر للميلاد[٩] . وينبغى أن نذكر أن سبيل قايتباى في بيت المقدس كان من أروع الأسبلة في المدينة المقدسة بما يحتويه من وحدة تسبيل المياه الباردة، هذه الوحدة التى عرفت باسم السلسبيل المستمدة من الآية القرآنية ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان : ١٨] . فمن ينظر إلى الشكل المعمارى للسبيل المذكور يدرك أن السلسبيل كان يتكون من الرخام الموضوع في قوصرة معقودة بالمقرنصات الملونة وزين سطح الرخام بدالات بحيث يحيط بها إطار غائر، بحيث يؤدى انسياب المياه على اللوح وملامسة المياه المتدفقة للهواء المتجدد إلى جعلها باردة ومستساغة الشرب ثم

إلى أحواض الشرب أمام النوافذ لسقاية أبناء السبيل . فالجوانب الجنوبية والغربية والشمالية من السبيل فيها نوافذ (٣,٤٢×١,٩٤متراً) وعليها درابزين، أما باب السبيل فهو الجانب الشرقى، والحقيقة أن السبيل الذي نتحدث عنه بناء ساحر لاقى اهتمام كثيرين من علماء الآثار ونقاد الفن والمؤرخين . فهو يتألف من ثلاث طبقات أو أجزاء، هي قاعدة مستطيلة ارتفاعها ٧,٦٥متراً، ورقبة قبة فيه ارتفاعها ٢,١٨متراً، وقبة ارتفاعها ٣,٤٥متراً، والارتفاع الكلى للسبيل هو ١٣,٢٨متراً[١٠] .كما أن أسفل القبة مزود بأربعة شبابيك تعمل كمساقط هوائية إلى داخل السبيل لزيادة تجديد الهواء إلى داخل السبيل ودفعه، فضلاً عن نفاذ الضوء . هذا إلى جانب أن بناء السبيل من النوع المسمى بالأبلق فيه صفوف من الحجارة الحمراء والصفراء بالتناوب، وهناك أربع درجات تقود إلى القاعدة في جهتى الشمال والغرب . أما في الجنوب فلا درج هناك بل هناك المسطبة . وباب السبيل تبلغ أبعاده ١,٩٥× ٨٩, متراً، يدخل إليه من جهة الشرق بدرج مستدير يستند إلى رصيف المسطبة . وأما القبة فهى مغطاة بالأرابيسك وعليها هلال برونزى يتجه من الشرق إلى الغرب، وليس من الشمال إلى الجنوب كغيره من الأهلة في الحرم القدسى الشريف ومسجد الصخرة المشرفة، وهما من أهم معالم المدينة المقدسة الإسلامية[١١] .

أما الطابق الثاني فيرتفع عن سطح الأرض بحوالى متر وتوجد به المزملة لتوزيع الماء على الراغبين فيه، وحيث يقوم المزملاتى برفع الماء من الصهريج أو البئر عن طريق الفتحة المعدة لرفع الماء أو عدة فتحات قطر كل فتحة منها حوالى عشرين سنتيمتراً، وكان الماء يرفع من هذه الفتحات بواسطة كيزان مربوطة بسلاسل ومربوطة بقصبان تلك الفتحات والتى تعرف كذلك بالنوافذ .

أما عن طريقة تشغيل السبيل، فكانت تتم بواسطة بكرة فوق الصهريج

مربوط بها حبل، وكان بطرف الحبل سطل يرفع به المزملاتى الماء إلى القنوات الموجودة تحت بلاطة المزملة فيجرى الماء إلى النوافذ"الفتحات" القائمة عند فتحات القنوات، وكان طالب المياه يصعد على السلالم الموجودة أسفل كل نافذة إلى حيث يجد الماء فيحصل على حاجته بالكوز[١٢] .

والماء الذي جعل الله سبحانه وتعالى منه كل شيء حى كان موضع رعاية سلاطين المماليك وأمرائهم وعنايتهم، فقد كانت المياه بالنسبة لأهالى مدينة بيت المقدس في ذلك الزمان بل وكل زمان والذين خبروا الجدب والجفاف نعمة يحمد لمن يوفرها لهم كل الفضل، وتعد من مآثره التى يرددونها عبر الأزمان، وهم الذين عانوا كثيرا من قلة الماء بسبب قلة الأمطار وعدم وجود أنهار ببلدهم . لذا فقد أولى سلاطين وأمراء المماليك وأهل اليسار مسألة توفير الماء العذب جل اهتمامهم فأكثروا من بناء الأسبلة، وهي عبارة عن مبان مستقلة بذاتها أحيانا، أو كانت تلحق بالمساجد والمدارس أو حتى المنازل . وغالبًا ما ارتبط بناء السبيل بإنشاء مكتب لتعليم أيتام المسلمين أى كُتاب فوقه مباشرة، ليتلقوا فيه دروسهم الأولية في الكتابة والقراءة وحفظ الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، إلا أن الحال لم تكن كذلك مع سبيل قايتباى وكما يبدو من طرازه المعمارى الذي يؤكد أنه كان سبيلاً منفردًا وهذا واضح تماما من النص الذي أورده مؤرخ بيت المقدس مجير الدين الحنبلى من قول :"ومن جملة ما عمره السلطان حين عمارة المدرسة السبيل المقابل لها بداخل المسجد فوق البئر المقابل لدرج الصخرة الغربى، وكان قديمًا على البئر المذكور قبة مبنية بالأحجار كغيره من الآبار الموجودة بالمسجد فأزيلت تلك القبة وبنى السبيل المستجد وفرش أرضه بالرخام وصار في هيئة لطيفة"[١٣] . فلو لم يكن هذا السبيل منفردا، أى ليس به مكتب لتعليم الأطفال لذكر ذلك .

كما أن النقش المكتوب على إفريز كبير يغطى واجهات السبيل الأربع الجنوبية والغربية والشمالية والشرقية، والذي يرجع إلى العصر الحديث، وعلى وجه التحديد عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م في عهد السلطان العثمانى عبد الحميد، هذا النقش يبتدئ بالبسملة من الجهة الجنوبية وينتهى بذكر سنة ثلاثمائة وألف في الجهة الشرقية على الوجه التالى : من الجنوب :"بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا" – كناية عن وظيفة المبنى بأنه سبيل لتوفير الماء العذب للشرب –"عينا يشرب بها عباد الله" – كناية عن المستفيدين من تلك المياه –"يفجرونها تفجيرا" – كناية عن أن مياهه لا نفاد لها لإغاثة الخلق في قيظ الصيف –"ويخافون يوما كان شره مستطيرا" – كناية عن أن تسبيل ماء هذا السبيل كأحد أعمال القربى لله تعالى وطلبا لرضوانه ومثوبته –"ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا" – كناية عن وظيفة أخرى لهذا السبيل ومدى ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في مجال الرعاية الاجتماعية في كل موضع ومكان ومنها بيت المقدس من نجدة الملهوف، ومساعدة المحتاج، وضرورة رسوخ القيم الإنسانية وتحولها إلى عمل منتظم يخضع لمؤسسات شرعية، و"إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكور" – كناية عن أن كل خير هو من عند الله الذى سخره لعباده أجمعين – "أنشأ هذا السبيل المبارك مولانا الملك الأشرف إينال ثم جدده سلطان الإسلام والمسلمين قامع" من الشمال –"الكفرة والمشركين ناشر العدل في العالمين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أعز الله أنصاره" . والنص هنا صريح وواضح بأن هذا السبيل من إنشاء السلطان إينال وهو الملك الأشرف أبو النصر العلائى إينال الأجرودى الناصرى (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م) . ثم جدد بناءه السلطان قايتباى، والنص بما فيه من ألقاب لهذا السلطان المملوكى مثل"سلطان الإسلام والمسلمين" فيه كثير من الدلالات، منها وحسبما يقول ابن شاهين :"ولا يطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله، فإنه الآن أعلى

الملوك وأشرفهم مرتبة، سيد الأولين والآخرين، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى بعقد الأئمة الأربعة"[١٤] . وهو ما يتفق تماما مع سياسة سلاطين المماليك الدينية لكى يحظوا بتأييد المعاصرين لهم وتغيير نظرتهم إليهم . وعلى هذا الأساس ظهرت لهم كثير من التسميات الدينية العديدة والتى وضعت في مكاتباتهم الرسمية وعلى العملة، مثل"نصير أمير المؤمنين"، و"سلطان الإسلام والمسلمين"، و"محيى العدل في العالمين"، و"ظل الله في أرضه"، و"القائم بسنته وفرضه"، و"حامى الحرمين الشريفين والقبلتين"، و"قامع الكفرة والمشركين"، وأعلاها"قسيم أمير المؤمنين"[١٥] .ومن الواضح أن هدفهم من وراء هذه التسميات هو التأكيد على الشرعية التى أصبحوا يتمتعون بها . أما التسميات الأخرى ومنها"أبو النصر"، و"أعز الله أنصاره"، و"سيف الدين"، و"الناصر"وغيرها من التسميات فهى للتذكير بالانتصارات التى حققوها ضد الأخطار الخارجية ممثلة في أهم خطرين وهما الغزوة الصليبية وما استتبعها من محاولات لفرض الحصار الاقتصادى على مصر، والغزوة المغولية المدمرة التى أدت إلى زوال عروش وقتل الآلاف المؤلفة من المسلمين، ودمار كثير من بلدان الشرق، وكذلك حرص سلاطين دولة المماليك الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) على ألا يكونوا في نظر معاصريهم أقل مرتبة ممن سبقوهم في دولة المماليك الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) في العناية بالمسلمين ومقدساتهم[١٦] .

ثم يستمر النص بقوله .."في شهر شوال المبارك سنة سبع وثمانين وثمانمائة" – كناية عن تاريخ بناء سبيل قايتباى . ثم يأتى من جهة الشرق استكمال النص، وبشكل واضح باسم من جدده في العصر التالى وهو العصر العثمانى بالقول :"ثم جدده الخليفة الأعظم والسلطان المفخم الغازى عبد الحميد خان بن السلطان الغازى عبد المجيد خان من آل عثمان أعز الله ملكه فى شهر رجب الفرد سنة ثلاثمائة وألف"[١٧] .هذا النص أيضا يؤكد أن السبيل كان

منفردًا، ولم يلحق به مكتب لتعليم الأطفال أو أى مبنى آخر . كما أنه يؤكد أن بناء السبيل الحالى هو بناء السلطان قايتباى وأن بناء السلطان إينال لم يبق منه شيء مطلقا، كما أن تجديده أو تعميره كان على يد السلطان عبد الحميد سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م، هذا التجديد كان عبارة عن ترميم الجوانب وداخل السبيل، وكتابة الإفريز من جديد بحيث تمت التضحية ببروتوكول إينال، وكذلك بجزء من بروتوكول قايتباى، أى ألقابهما عند إعادة كتابة النص، كما تم تشويه بعض الزخارف بسبب إعادة كتابة الإفريز(١٨).

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن توفير الماء العذب طوال العصر المملوكى بشقيه لم يكن قصرًا على الإنسان فحسب، بل إن شجرة الشفقة الإنسانية بظلالها الوارفة قد امتدت إلى الحيوان وجميع الدواب كذلك، فعينت لها أحواض لسقياها، طلبا للمثوبة والأجر كذلك، تلك الأحواض عادة ما كانت تنتشر في كل مكان بالإضافة إلى أنها وجدت كذلك بجوار كثير من الأسبلة ومنها سبيل قايتباى(١٩) .

وثمة مجال لعبت الأسبلة ومنها سبيل قايتباى دورًا مهمًا في تجهيز الموتى لدفنهم، لاسيما خلال أوقات المجاعات والأوبئة الفتاكة، ففى مثل هذه الأوقات كانت شوارع مدينة بيت المقدس تمتلئ أحيانا بالجثث التى تترك بلا دفن لأى سبب من الأسباب. وقد كان السبيل يقوم بتقديم الأكفان لأولئك الذين يتم تغسيلهم ثم تكفينهم ووضعهم في النعوش استعدادا لدفنهم من وقف الطرحاء المرصد لهذا السبيل، وبذلك أسهم هذا السبيل في حمل بعض العبء في تجهيز ودفن الموتى الذين لا يستطيع أقاربهم ذلك، أو مات أقاربهم . من ثم تم ترتيب رجل فى دكان السبيل وأعطيت له الأكفان والقطن والكافور، وكذلك الأدوات الضرورية والحمالون للقيام بتجهيز الموتى(٢٠) .

كما تنبغى الإشارة إلى أن الانتهاء من بناء هذا السبيل كان من المناسبات السارة التى تم الاحتفال بها، وفى ذلك يقول ابن إياس وهو معاصر :

رسم السلطان"قايتباى" للأمير آقبردى الدوادار، وأبى البقاء بن الجيعان، وجان بلاط، وماماى، ورمضان المهتار، وجماعة من القراء والوعاظ، بأن يتوجهوا إلى القدس، بسبب عمل وليمة لمنشآت السلطان التى أنشأها بالقدس، وقد انتهى العمل منها[٢١] .

كذلك ينبغى أن نشير إلى أن هذا السبيل كغيره من المؤسسات المختلفة خضع لإشراف دقيق من محتسب بيت المقدس لمراعاة النظافة ومحاربة التلوث عن طريق الماء بما كان يصدره من تعليمات كان على العاملين به التقيد بها، كما أصدر تعليماته المشددة لتقنين استخدام مياهه مثله مثل الأسبلة الأخرى وبخاصة الموجودة في ساحة الحرم الشريف، وذلك بالتشديد على طائفة السقائين الذين انتشروا في أسواق القدس ومحلاتها بعدم نقلهم الماء من آبار الأسبلة وصهاريجها إلا في أضيق الحالات[٢٢] .

مواعيد عمل السبيل :

أما عن مواعيد تسبيل المياه في سبيل قايتباى هذا، فهى المواعيد نفسها المعمول بها في كل مدينة خضعت لسلطنة المماليك، وذلك في الأيام العادية طول النهار، وقت الحر الشديد في كل يوم من الظهر إلى العصر . وهو وقت القائظة والحر الشديد . ويختلف الحال بالطبع خلال شهر رمضان المعظم، إذ يبدأ التسبيل فيه من أول وقت الغروب إلى أن يأوى الناس إلى منازلهم بعد صلاة التروايح، ثم من وقت التسبيح إلى صلاة الفجر[٢٣].

أدوات السبيل :

وعن الأدوات التى كانت مستخدمة في السبيل فهى عادة لم تختلف عن أى سبيل آخر، فقد كانت سُلب الليف، أو الكتان، والأدلية الجلد، وآنية الشرب، وإن كان قد تحتم وجود آنية جديدة لا تقدم إلا لكبار المسئولين وعلية القوم،

والمكانس الخوص، والطسوت، والأسطال النحاس، والأباريق، والقلل الفخار، السفنج، والفوط للمسح . وجرت العادة بالاحتفاظ بهذه الأدوات في خزانة خشبية ضيقة بها رفوف خشبية توضع في الدكان الملحق بالسبيل أو في أحد أروقة السبيل[٢٤] .

الأوقاف على السبيل :

الحقيقة أننا لم نعثر فيما بين يدينا من مصادر تقليدية – ونقصد بها مؤلفات المعاصرين – ولا حتى في دفاتر الطابو العثمانية الخاصة بأوقاف وأملاك المسلمين التى تم الإطلاع عليها أو فى سجلات المحكمة الشرعية في القدس على ما يفيد تخصيص السلطان قايتباى لأوقاف بعينها لهذا السبيل، وكل ما لدينا من معلومات هى مستقاة عن المصادر عن أوقاف هذا السلطان على مدرسته فى القدس والجامع فى غزة، سواء في وثيقه المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧ والمؤرخة بالحادى والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة، أو ما جاء في دفاتر تحرير الطابو عن تحديد مواقع تلك الأوقاف وريع بعضها بما يؤكد عدم وجود أوقاف خصصها الواقف للسبيل، وعلى هذا فلابد أن يكون السبيل قد تم الإنفاق عليه من ريع تلك الأوقاف وإلا لما عاش السبيل حتى عصرنا الحالى وطوال فترة تزيد على ألف ومائة وتسع وعشرين سنة .

ومن اللافت للنظر أن الأوقاف التى أوقفها السلطان قايتباى على منشآته تعددت وتنوعت تنوعا واضحا . فقد تم ذكر بعضها في الدفتر رقم ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية"دفتر الطابو" على أنها ٥٥مصدرا، وهي عبارة عن حصص فى ٢٨ قرية تابعة للقدس، أو لغزة، وعسقلان، ويبنى، وبيت جبريل، هذه الحصص منها ما هو قرية بأكملها، ومنها ما هو ١٢ قيراطا أي نصف أرض قرية، ومنها ١٨قيراطا من أرض القرية التى يتم تقسيمها إلى ٢٤

قيراطا، أى ثلاثة أرباعها، ومنها ما هو ١٥ قيراطا من أرض القرية، ومنها ما هو ١٠ قراريط من أرض القرية، ومنها ما هو ٦ قراريط من أرض قرية، أو ٥ قراريط، أو ثلاثة قراريط أو قيراطين ونصف، وقراطين وثلث، وقيراطين، وأقلها قيراط ونصف . بالإضافة إلى عدة أفران، ومعاصر، وطواحين لطحن الغلال، وحمامات، ودكاكين منها ١٧ دكانا فى غزة وحدها، وعدد من المزارع، وقطع أرض لإقامة مساكن عليها، إلى جانب غراس كثير من الأراضى الزراعية وبخاصة من الكرم والتين . وقد كتب أمام بعضها ريعها السنوى، أو الضرائب التى كانت تفرض عليها في العصر العثمانى، وكنت أتمنى أن يكون هناك بيانات كاملة عن ريعها بالكامل والمبالغ التى فرضت عليها كضرائب . ومع هذا فواضح أنها كانت تدر ريعا ضخما[٢٥] .

الوظائف الإدارية والفنية :

ومما لا شك فيه أن أوقاف السلطان قايتباى كانت كبيرة مما ساعد على إيجاد مجموعة كبيرة من الوظائف الإدارية فى السبيل وفى غيره من أوقاف السلطان فى القدس وغزة . لإدارة هذه الاوقاف واستخراج ريعها وصرفه فى جهاته طبقا لشرط الواقف . كما أن تعدد الأعيان الموقوفة واتساعها وصيانتها والعمل على دوام عمارتها تطلب مجموعة من الوظائف الفنية . وتشمل مجموعة الوظائف الإدارية عدة وظائف من أهمها :

الناظر : فهو على رأس الوظائف الإدارية، وهو المسئول الأول عن الوقف، وعليه أن يقوم برعايته، والعمل على إنمائه، وحسن استغلاله طبقا لشروط الواقف . وقد بلغ راتبه السنوى ٣٠٠٠درهما، وكان يختص بها أحد كبار العلماء في بيت المقدس وبخاصة قاضى القضاة الشافعى[٢٦].

المباشر : وهو موظف إدارى بالوقف، يتولى وظيفة المباشرة، ويشترط فيه أن يكون من أهل الخير والدين، له معرفة بعمل الحساب ونظمه، وتنظيم الحسابات، ويتولى ضبط ما يتحصل من ربع الأوقاف أصلا وخصما وكتابة

قوائمها . أى ما يتحصل من ريعه، وما يخصم منه، وتم تخصيص راتب شهرى له ما بين ٢٤٠درهما وخمسمائة درهم شهريا[٢٧].

الكاتب : وكان يشترط فيه أن يكون موصوفا بالخير والديانة والعفة والصيانة، وتجنب الطمع والخيانة، وأن يكون خبيرا بصناعة الحساب غير مهرج ولا كذابا موثوقا في صناعته، يقوم بضبط متحصل الوقف ومصروفه وعمل حسابه، كما عرف أيضا باسم العامل . وتم تخصيص راتب شهرى له ما بين ٢٠٠ و ١٥٠ درهما شهريا[٢٨] .

الشاد : كذلك عرف تحت اسم المشد، وكان يشترط فيه أن يكون ثقة أمينا ومن أهل الخير والدين له همة وقوة عزم ويقظة . وهو بمثابة الملاحظ أو المشرف أو المفتش على القومة وأرباب الوظائف، وعادة ما يكون من عتقاء الواقف، وقد بلغ راتبه ما بين مائتى درهم وسبعين درهما[٢٩] .

المشارف أو المشرف : وهي وظيفة تشبه الشاد أو المشد، وعادة ما يقوم بمراقبة الأمور المالية وحث أرباب الوظائف على العمل ويدفعهم إلى ذلك وعادة ما يكون من عتقاء الواقف، بلغ راتبه الشهرى مائة وخمسين درهما بالإضافة إلى ثلاثة أرطال من الخبز يوميا[٣٠] .

المتولى : الذي يقوم أحيانا مقام الناظر في الإشراف على شئون الوقف، ومن أهم واجباته إعمار الوقف واستثمار فائض أمواله، ومتابعة قضايا الوقف وإعداد الحسابات السنوية[٣١] .

الشاهد : وجاءت هذه الوظيفة بمسميات مختلفة منها المشاهد أو شاهد التفرقة وهى وظيفة رقابية على أحوال الوقف وموظفيه، كما أن منها شاهد المرمات، ومهمته مراقبة الترميم الذي يجريه العمال والمعمار فى بناء السبيل، وكان له راتب نقدى يتقاضاه شهريا إلى جانب عدة أرطال من الخبز فى كل شهر . وفى وقف السلطان قايتباى وجدت وظيفة شاهد

العمارة، ووصل راتبه فى بدايات العصر العثمانى ٢٥٠درهما[٣٢] .

الجابى : وقد يكون في الوقف الواحد إذا كان واسع الانتشار وكما هى الحال فى أوقاف السلطان الأشرف قايتباى أكثر من جاب، وتعتبر وظيفة الجابى من أهم وظائف المهام المالية للوقف، وهو يختص بتحصيل ريع الوقف ومحاصيله وغلاله . وكان يشترط فيه أن يكون من أهل الخير والدين له همة وأمانة، ناهضا حسن السيرة، صدوقا عارفا، له قدرة على استخراج الريع، وألا يترك قسطا إلى أن يستحق قسط آخر، ويُسكن الأعيان الموقوفة أو يخليها، ويتولى قبض الريع وضبطه، ويورد ما يجبيه إلى الصيرفى أولا فأولا إلا إذا كان هو نفسه الصيرفى، وكان يتقاضى راتبا وصل إلى ألف درهم سنويا[٣٣].

السقاء : كان الماء ولا زال عنصرا مهما فى مدينة بيت المقدس، ومن هنا ترد وظيفة السقاية، ومهمة هذا السقاء جلب الماء من إحدى قنوات القدس، إلى صهريج السبيل في أوقات القحط وعدم سقوط الأمطار، وكذلك رفع الماء من الصهريج إلى السبيل، بلغ راتبه الشهرى ١٦٠ درهما أواخر ذلك العصر[٣٤] .

المستوفى : من الوظائف التى وجدت فى كل وقف من الأوقاف طوال العصر المملوكى، وكانت مهمته تدقيق جميع العمليات الحسابية الخاصة بوقف السبيل، وله راتب سنوى بلغ أواخر عصر سلاطين المماليك ألف درهم سنويا[٣٥] .

الصيرفى : وهى وظيفة من الوظائف الهامة فى كل وقف من الأوقاف، تولى صاحبها قبض جميع أموال الوقف من هلال وخراجى ويحفظها تحت يده، ويصرف منها ما يأذن له الناظر فى صرفه، وفى جوامك المستحقين، والعمارة، والجراية والزيت اليومى، وما يحتاج إليه فى كل سنة من التوسعة، وبلغ راتبه الشهرى ١٥٠ درهما[٣٦] .

البرد دار أو البريد دار : وهى وظيفة استحدثها السلطان قايتباى حسبما يذكر ذلك ابن إياس . وكان يتولى الإشراف على بريد الأوقاف الصادر والوارد، وساير ما يحتاج إليه من إخراج الأوراق المالية التى تعطى لمستأجر الأعيان الموقوفة لإثبات قيامهم بسداد ما عليهم من أموال أو غلال أو غير ذلك[٣٧] .

أما الوظائف الفنية في السبيل فيأتى فى مقدمتها:

المزملاتى : وهو الذى يتولى تسبيل الماء وتوزيعه على المترددين على السبيل، وربما تعليق المظلات ومفردها مظلة والتى عرفت فى مصطلح ذلك العصر باسم السحابة، لوقاية من يشرب من السبيل حرارة الشمس، ويتعهد الرخام والدهليز بالكنس والمسح والبخور فى كل وقت، وقد كان مسموحًا له باتخاذ بعض المساعدين من الصبيان لمساعدته . ومن المؤكد أن السلطان قايتباى قد وضع شروطا معينة والتى كانت بمثابة عرف متبع فى كل سبيل لمن يتولى وظيفة المزملاتى، منها أن يكون :"رجل ثقة أمين جميل الهيئة، نظيف الثياب، سليم البدن، والجسد من العاهات، ذى قوة وشطارة ونهضة ومروة، وأن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى، والرفق يتعين أبلغ فى إدخال الراحة على الواردين صدقة دائمة وحسنة مستمرة"[٣٨] .

المعمار : وهى وظيفة كان يتولاها المهندس والذى عرف فى وثائق العصر المملوكى باسم المعلم والذى اشترط فيه أن يكون عارفا بالأبنيه، ماهرا فى صناعته، وأن يتفقد أبنية الوقف، ويُحضر ما تحتاج إليه العمارة من مون وبنائين وغير ذلك، ويتعهد الصناع فى العمل، ويحثهم عليه يمنعهم من البطالة، حتى لا تتعطل الأعمال المعمارية التى يقومون بها، وقد بلغ راتبه الشهرى ستون درهما[٣٩] .

شاهد العمارة : وهى من الوظائف المتعلقة بعمارة الأوقاف ومنها أوقاف السلطان قايتباى على مدرسته فى القدس وعلى السبيل، وكان يشترط فيمن

يتولاها أن يكون أمينا، ثقة، عدلا ٠ وكان يتقاضى راتبا شهريًا بلغ فى أوائل العصر المملوكى ثلاثين درهما[٤٠] ومن المعقول زيادته تدريجيا ٠

المرخِّم : وهى وظيفة كان يعهد بها عادة إلى أشهر المرخمين، واشترط فيه أن يكون عارفا بصناعة الترخيم والتنعيم، قادرًا على الصناعة . وكانت مهمته تفقد الرخام الموجود فى السبيل والقبة، وإصلاح ما يحتاج منه إلى إصلاح، ويصرف له فى كل شهر ستون درهما[٤١] ٠

كذلك وجدت فى الأوقاف والمؤسسات الدينية والاجتماعية الكثير من الوظائف لصغرى التى تخدم أغراضًا مختلفة، مثل السباك، ونجار السواقى، وسواق الساقية، والفراشين، والخدم، والبوابين، وما إلى ذلك من الأعمال التى تحتاج لها المؤسسات المختلفة والتى أنشأها الواقفون ٠ وكما رأينا فقد ساهمت الوظائف الإدارية والفنية فى الحفاظ على السبيل موضع الدراسة فى أحسن حالاته لفترات طويلة، حتى وصل إلينا بكامل روعته وجماله ٠

والله أسأل أن أكون قد وفقت،،

والله وحده ولى التوفيق،،،،

الهوامش :

(١)العسلى (كامل جميل) : من آثارنا فى بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢، ص ٢٤٨ .

(٢) ابن تغرى بردى :"جمال الدين أبو المحاسن، ت ٨٧٤هـ" : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، طبع دار الكتب المصرية، ١٩٣٩-١٩٧٢م، جـ١ ص١٢ .

(٣) عارف باشا العارف : تاريخ القدس، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥١، ص٣٠١ .

(٤) على السيد على : القدس فى العصر المملوكى، القاهرة، ١٩٨٦، ص٢٤٣ .

(٥) المرجع السابق، نفسه، ص٢١-٣٣.

(٦) كتب بذلك لوحة تاريخية بخط النسخ المملوكى نصها"جدد هذا السبيل والمصلى والمحراب العبد الفقير إلى الله تعالى شاهين ناظر الحرمين أيام مولانا الملك الأشرف برسباى خلد الله مكة بتاريخ شهر رمضان المعظم سنة اثنين وثلاثين وثمان مائة . راجع عارف العارف : المفصل فى تاريخ القدس، ص٢٠٨ ؛ سعيد عاشور :"بعض أضواء جديدة على مدينة القدس" بحث مقدم للمؤتمر الدولى الثالث لتاريخ بلاد الشام، أبريل ١٩٨٠، ص٢٧ .

(٧) العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس، ص٢٣٧ .

(٨) المرجع السابق نفسه، ص٢٢١ .

(٩) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية، الطبعة الأولى، بولاق، ١٣٠٥هـ، جـ٦، ص٥٧ .

(١٠) عزب (خالد) : تراث العمارة الإسلامية، دار المعارف بالقاهرة (د.ت)، ص٤٥ ؛ العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس، ص٢٤٨، ٢٤٩ .

(١١) العسلى : المرجع السابق نفسه، ص٢٥٠ .

(١٢) عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة الأمير أخور الكبير قراقجا الحسنى، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، مجلد ١٨ ؛ جـ٢ ديسمبر ١٩٥٦، ص٢٠٧-٢٣٤ ؛ سعيد عاشور :"أضواء جديدة على القدس"، ص٢٨-٢٨ ؛ على السيد على : القدس، ص٢٤٢-٢٤٣ .

(١٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، جزءان طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة، ١٢٨٣هـ، جـ٢، ص٦٦١ .

(١٤) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٥م، ص٨٩ .

(١٥) القلقشندى"أبو العباس أحمد ت ٨٢١هـ" : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، ١٩١٣م، جـ٦، ص١٠٨-١٢٤ ؛ عبد المنعم ماجد : دولة سلاطين المماليك ورسولهم فى مصر، طبع القاهرة، ١٩٧٠م، جـ١، ص٢٩ ؛ على السيد : القدس، ص٢٦ .

(١٦) على السيد على : القدس، ص٣٢ .

(١٧) العسلى : من آثارنا فى بيت المقدس، ص٢٥٢-٢٥٣ .

(١٨) المرجع السابق، نفسه، ص٢٥٣ .

(١٩) ابن إياس"محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠هـ" : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، القاهرة ١٩٦٠-١٩٧٢م، جـ٣، ص١٨١ ؛ على السيد على : القدس، ص٢١٧ .

(٢٠) آدم صبرة : الفقر والإحسان فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ١٢٥٠-١٥١٧م، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ص١٥٥-١٥٧ .

(٢١) بدائع الزهور، جـ٣، ص٢١٨ .

(٢٢) محمد عدنان البخيت، نوفان رجاء السوارية : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، عمان ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٥٤ .

(٢٣) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، ص١٥١-١٥٢ ؛ على السيد على :"الرعاية الاجتماعية فى مكة المكرمة، عصر سلاطين المماليك" مجلة التاريخ والمستقبل، يناير ١٩٩٦، ص٢٠٣-٢٠٥ ؛ احمد الصاوى : الأسبلة ماء الحضارة، مجلة حورس، أبريل – يونية ١٩٩٥، ص٥٩-٦١ .

(٢٤) محمد محمد أمين : نفسه، ص١٥٣ وما به من مصادر .

(٢٥) محمد عدنان البخيت : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، ص٣٩-٤١ ؛ ٣٤١ ؛ منظمة المؤتمر الإسلامى : أوقاف وأملاك المسلمين فى فلسطين، حسب الدفتر ٥٢٢، من دفاتر التحرير العثمانية، تحقيق وتقديم محمد ابشرلى، محمد داود التميمى، استانبول ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٤، ٣٩، ٤٠، ٧٠ .

(٢٦) محمد محمد أمين : المرجع نفسه، ص١٢٢ ؛ العسلى : وثائق الحرم القدسى الشريف، عمان، ١٩٨٣م، المجلد الأول، ص١-٣٠ ؛ محمد عدنان البخيت : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، ص٣٤٦ .

(٢٧) محمد محمد أمين : الأوقاف، ص٣٠٤ ؛ محمد عدنان البخيت : المرجع السابق، ص١٢٧ .

(٢٨) محمد محمد أمين : نفسه، ص٣٠٥-٣٠٦ .

(٢٩) المرجع السابق، نفسه، ص٣٠٦-٣٠٧.

(٣٠) المرجع نفسه، ص٣٠٩-٣١٠ .

(٣١) محمد عدنان البخيت : لواء القدس، من دفتر تحرير ١٣١، ص١٢٥-١٢٦ .

(٣٢) المرجع السابق، نفسه، ص٢٧ ؛ وفى دفتر ٤٢٧، ص١٢٧ .

(٣٣) محمد محمد أمين : الأوقاف، ص٣١٠-أ، ٣١١ ؛ محمد عدنان البخيت : المرجع السابق، ص١١٩، ١٢٧ .

(٣٤) محمد عدنان البخيت : المرجع السابق نفسه، ص١٢٨ – ١٢٩ .

(٣٥) المرجع السابق، نفسه، ص٣٢٠ .

(٣٦) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية، ص٣١٢ .

(٣٧) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٩ ؛ محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص٣١٦ .

(٣٨) محمد محمد أمين : المرجع نفسه، ص٣١٧ .

(٣٩) المرجع السابق نفسه، ص٣١٧ .

(٤٠) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية، تحقيق ٦٨٨ ؛ المرجع نفسه، ص٣١٨-٣١٩.

(٤١) محمد محمد أمين : الأوقاف، ٣١٩، ٣٢٠ .